مدينة عين ماضي من خلال الرحلات الحجازية المغربية في القرنين الحادي و الثاني عشر الهجريين

أ.نواري عبد القادر
أستاذ علوم إسلامية في التعليم الثانوي وباحث في التراث بولاية البيض
hnouari82@gmail.com

تاريخ الاستلام :2019/07/22 ؛ تاريخ القبول : 2019/12/19 ؛ تاريخ النشر : 2020/01/30

ملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى إبراز الدور الفاعل الذي اضطلع بعه الرحالة المغاربة في التعريف بمدينة عين ماضي في إطار ركبهم الحجازي السنوي، إذ شكلت لنا بذلك مصدرا بديلا لكتب التاريخ العام في التعريف بهذه المدينة وتقديم صورة للأوضاع الاجتماعية والجغرافية والاقتصادية والثقافية لهذه المدينة التي كانت عبارة عن حاضرة علمية ومنطقة إستراتيجية، وللتدليل على ذلك نأخذ في هذه الدراسة نماذج من تلك الرحلات والأركاب الحجازية خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين.

الكلمات المفتاحية: مدينة عين ماضي ؛ الرحالة ؛ الرحلة الحجازية ؛ الركب السجلماسي ؛الركب الفاسي

Abstract :

The aim of this research is to highlight the active role played by the moroccan travellers in introducing the city of ain madi in the framework of their annual pilgrimage (Hajj trip) . thus creating an alternative source for public history books introducing this city and pesenting a picture of the social geographical ¸ economic and cultural conditions of this city ¸ for a scientific capital and a strategic area . To illustrate this we take in this study models of those trips and the pilgrimage during the eleventh century AH .

Key –words : Ain Madi city ; Traveller pilgrimage; (Hajj trip) ; Knee sijilmassi ; Knee Elvas

مقدمة:

لقد توجهت عناية الباحثين في ميدان التاريخ إلى اتخاذ عدة سبل ومناهج في البحث خاصة إذا تعلق الأمر ببلد من البلدان أو إقليم من الأقاليم، لأن كتب التاريخ العام لا تقدم صورة مكتملة المعالم عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والثقافية عن هذا البلد أو ذاك الإقليم، ولعل من أهم السبل والمصادر البديلة كتب الرحلات بشتى أنواعها، التي تعرفنا ببعض مناطق وبلدان الجنوب الجزائري، ومن أبرزها الرحلات الحجازية المغربية خاصة في القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين ، والتي أعطتنا صورة حية بشتى جوانبها الإنسانية عن بعض هذه المناطق كما قال الباحث مولاي بلحميسي "فالرحلات من المصادر المساعدة للتاريخ وهي أحيانا بمثابة الشريط السينمائي يصور منظرا أو يلتقط حدثا" (بلحميسي مولاي ، 1981: 08)

وقد حظي هذا الفن من أدب الرحلة بالتفاتة بعض الدارسين المغاربة والجزائريين ونخص بالذكر منهم الباحث مولاي بلحميسي من خلال كتابه " الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني" ، وكذلك الدراسة التي قام بها الأستاذ محمد مكامان "الرحلات المغربية في القرن الحادي والثاني عشر للهجرة " ، كما لاننسى الجهد الذي قام به الدكتور محمد المنوني في التعريف بالأركاب الحجية من خلال كتابه المعنون بـ: " ركب الحاج المغربي"، وما كتبه المؤرخ الأستاذ الدكتور بلقاسم سعد الله حول أدب الرحلة " الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني".

ولعل من بين المناطق التي حظيت باهتمام بعض هؤلاء الرحالة المغاربة " مدينة عين ماضي" لذا حاولت من خلال هذا البحث أن أسلط الضوء على هذه المدينة من خلال الرحلات الحجازية المغربية في القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين ، ومن هنا يمكن طرح الإشكالية التالية:

من هم أبرز الرحالة المغاربة الذين اخترقوا المنطقة ؟ وماهي الصورة الحضارية التي رسمتها الأركاب الحجازية لمدينة عين ماضي؟

الفرضيات:

– تعتبر كتب الرحلات من المصادر البديلة التي تعطينا صورة حية عن كل الجوانب الإنسانية.

– الرحلة الحجازية المغربية من بين الرحلات التي قدمت لنا صورة واضحة عن الأوضاع الجغرافية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية.

– رسمت الأركاب الحجازية المغربية صورة حضارية لمدينة عين ماضي.

ولكي أوضح الموضوع من جوانبه المتعددة فقد ارتأيت من خلال دراستي إتباع الخطوات التالية:

- التعريف بمدينة عين ماضي و حدودها الجغرافية الحالية.
- التعريف بالرحلة الحجازية المغربية و بيان قيمتها التاريخية.
- مدينة عين ماضي في كتابات الرحالة المغاربة.

وأنهي عملي بخاتمة أستخلص فيها النتائج المتوصل إليها من خلال الدراسة.

كما اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التاريخي الوصفي بالإضافة إلى المنهج التحليلي.

أولا: التعريف بمدينة عين ماضي وحدودها الجغرافية:

تقع مدينة عين ماضي غربي مدينة الأغواط و تبعد عنها بحوالي 70 كلم، يحدها من الشمال الشرقي تاجموت، ومن الشمال الغيشة و بلدية وادي مزي مع الحدود الغربية للغيشة وتاجرونة، أما من الجنوب الغربي ولاية البيض ومن الشرق الحويطة و حاسي الرمل، وهي إداريا دائرة من دوائر ولاية الأغواط بدولة الجزائر.

ويقال أن سبب تسميتها نسبة لـ "ماضي بن يقرب" كما يذكر ذلك الأمير محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه" تحفة الزائر " حيث يقول «... وهذا الحصن اختطه ماضي بن يقرب من أقيال العرب في المائة الخامسة لأول استيلاء العرب على المغرب الأوسط أيام العبيديين ويحتوي على ثلاثمائة دار وتدخل له العين المسماة بـ "الحصن" في قناة و به صهاريج لجمع ماء المطر تسد عوز أهله، وله من المتانة والحصانة ما يبهر العقول وحوله من النخيل والأشجار المتنوعة ما هو زينة للناظرين» (الجزائري محمد بن الأمير عبد القادر، 2015:ج1 ،358).

وكذلك ذكرها المشرفي عندما كان يتكلم عن قبيلة أولاد ماضي قائلا «... وليس ماضي هذا الذي تنسب له العين التي يقال لها "عين ماضي" و إنما هي منسوبة لـ" ماضي بن يقرب" من بني كبير أحد بطون كرفة بن الأثبج الهلالي » (المشرفي عبد القادر الجزائري، 2017: 23).

ويقول الأغواطي في رحلته « إن هذه البلدة تقع غربي تاجموت و هي محاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس و لها بابان عظيمان.. » (الأغواطي الحاج ابن الدين، 2011: 88-89).

وقد مدحها الرحالة الإمام أبي عبد الله محمد بن الطيب الشرفي الفاسي بأبيات حين مر بها في رحلته الحجية قائلا :

عين ماضي بها عيون مواض فاعلات فعل السيوف المواضي

والتفـات الغــزال لما غـزا لي صائلا صولة الأسود المــواضي

وقدود تزهو إذا قدت القلب ازدهاء الأغصان بين الرياض

(الشرفي محمد بن الطيب ، 2018 :ج 01، 181)

وقد مرت مدينة عين ماضي بظروف سياسية صعبة خلال الفترة المدروسة فقد تعرضت للحملة العسكرية التي وجهها الباي محمد الكبير باي معسكر (ت 1214هـ_1798) قصد إخضاع قبائل جبل العمور والصحراء لسلطة الأتراك ،وذلك في سنة 1199هـ _1785م لأن الحكم في هذه المناطق كان مستقلا ولقد قاوم سكان عين ماضي هذه الحملة بثبات مما أدى الى تضييق الخناق على السكان واعتبرت عين ماضي بؤرة خطرة تهدد استقرار الحكم العثماني فكانت الأنظار تتجه إليها والغزوات تتوالى عليها (ابن هطال أحمد ،2010 :03-07) وكذلك (الراشدي أحمد بن محمد بن سحنون ، 2013 :147)

ثانيا: التعريف بالرحلة الحجازية المغربية و بيان قيمتها التاريخية:

قد جاء في القرآن الكريم أن قريش كانتا لهما رحلتان، رحلة الشتاء و الصيف حيث قال الله تعالى «لإيلف قريش إيلفهم رحلة الشتاء و الصيف ...» (سورة قريش، الآية 01- 02).

ولقد قيل" ولد الإنسان راحلا" (بلحميسي مولاي، 1981: 09)، أي منتقلا.

ولذا جاء في تعريف الرحلة أنها مشتقة من الارتحال أي الانتقال من مكان إلى مكان لتحقيق هدف معين ماديا كان أو معنويا.

وأسباب الرحلة و دوافعها تختلف من شخص لآخر، فهذا يرحل بحثا عن الرزق وذاك طلبا للعلم والآخر هروبا من الظلم أو لأداء فريضة الحج.

ولما كثر الإرتحال وتنوعت أغراضه ومقاصده وتعددت موضوعاته تطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا، وأصبح من الأهمية بما كان، بحيث لا تكتمل ثقافة الإنسان بدونه، كما أصبح من أهم المصادر التاريخية التي يعتمد عليها المؤرخون في وصف البلدان والأقاليم، ولعل من أهم أنواع الرحلات الرحلة الحجازية المغربية نظرا لأهميتها وقيمتها التاريخية التي تكمن فيما يلي :

- رصد الأوضاع العامة داخل المجتمعات الإسلامية وتعطي صورة واقعية عنها.

- إعطاء حقائق معرفية وأحداثا تاريخية عايشها الرحالة.

- رسم خريطة جغرافية و بشرية لأهم المراحل والمحطات والأحداث التي عايشها الرحالة في ذهابه وإيابه (وصف الطرق و المسالك والمدن والمعالم والظواهر الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والطبيعية).

وهذا ما لخصه لنا الباحث مولاي بلحميسي في قوله « ولهذا كله زاد دور الرحلات المغربية أهمية لما فيها من أخبار أو إشارات حول المدن والتل والصحراء والقبائل والتجارة ، وأصحاب الرحلات... عرب لا يوقفهم حاجز اللغة مثل ما وقع للأوروبيين الذين قدموا للجزائر في ذلك العصر، ولا يورطهم عامل اللسان في الأغلاط والأخطاء وهم مسلمون إذن بعيدون كل البعد عن الأفكار المسبقة والنوايا السيئة بل تحلو بالنزاهة... » (بلحميسي مولاي، 1981: 14).

ومن خلال إبراز هذه القيمة التاريخية للرحلة الحجازية المغربية فإنه لا يمكن الاستغناء عنها في رسم الصورة التاريخية والتعريف بمنطقة أو إقليم المغرب الأوسط خاصة في القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين، لذا اخترناها كمصدر للتعريف بمدينة " عين ماضي " .

ثالثا: مدينة عين ماضي في كتابات الرحالة المغاربة

لقد تعددت أركاب الحاج المغربي باعتبار نقطة الانطلاق وطريق السير إلى أربع أركاب وهي: الركب السجلماسي والركب الفاسي والركب المراكشي والركب الشنقيطي، وهي برية يضاف إليها الركب البحري .

والذي يهمنا منها ويعيننا في بحثنا هذا هي الأركاب التي كانت تخترق مدينة " عين ماضي " إما ذهابا أو إيابا، وهي الركب السجلماسي والركب الفاسي وهذا الأخير كان هو الركب الرسمي منذ العهد المريني حتى أيام السعديين، ثم حل مكانه الركب المراكشي"(المنوني محمد، 1953: 08).

فكان اختياري لمجموعة من الرحلات الحجازية والتي كانت ضمن الركب الفاسي أو الركب السجلماسي سأذكرها حسب ترتيبها الزمني :

1- الرحلة العياشية للبقاع الحجازية: الموسومة بـ : " ماء الموائد " وهي الرحلة الثالثة، للإمام أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المولود عام 1037هـ/ 1627م والمتوفي عام 1090هـ/1679م (الامام محمد بن أحمد الحضيكي ، 2006 ، ج2 : 396) وهذه الرحلة كانت ضمن الركب السجلماسي والتي كان مبدؤها عام 1072 هـ/1661م، ومنتهاها عام 1074هـ/1664م (حيث استغرقت 30 شهرا 17 يوما) وقد سلك رحمه الله في ذهابه طريق الصحراء مرورا بتراب أوقروت وتقرت.

أما مرحلة الإياب فقد مر بمنطقة سيدي خالد بسكرة والأغواط والغاسول مرورا بمدينة " عين ماضي " وذلك بتاريخ 17 من رمضان حيث قال: « وفي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان ارتحل الناس من الأغواط بعد ما تشاجروا في أي الطريق يسلكون، فمالت طائفة إلى طريق عين ماضي وكان لي فيها أرب لبيع بعض الكتب ولقاء الأصحاب ولم يقدر ذلك ومالت طائفة وهي الأكثر إلى المرور على الطريق اليسرى لقربها وسهولتها وخصبها فيما زعموا وأكثروا مخبرا .. »(العياشي أبو سالم، 2011: ج2، 530).

فنلاحظ من خلال كلامه أنه لم يدخل عين ماضي، رغم أن بغية الدخول لبيع الكتب ولقاء بعض أصحابه وهذا يدل على أن المدينة آنذاك كانت حاضرة علم يقصدها الطلاب وتباع فيها الكتب وتعقد بها الجلسات العلمية وهذا ما سيبينه العياشي (رحمه الله) في رحلته الحجية الصغرى والتي هي عبارة عن خريطة يعدد من خلالها المنازل الحجية الحجازية.

2- رحلة العياشي الحجية الصغرى: والموسومة بـ : تعداد " المنازل الحجية " أو " التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز " وذلك سنة 1068هـ/1658م وهي في الأصل رسالة بعث بها مؤلفها إلى أحد أصحابه من علماء فاس وهو الشيخ القاضي أبي العباس أحمد بن سعيد الميلدي أو المجيلدي المتوفى عام 1094هـ/1682م بفاس- نسبة الميلدي إلى قبائل بني ميلد البربر في الأطلس الأوسط المغربي-(الحضيكي محمد بن أحمد، 2006: ج1،

81) لما عزم على الحج لخص له فيها بعض النصائح تهم المسافر وذكر له فيها أسماء المنازل التي يسلكها الحاج برا من سجلماسة إلى الحجاز وأرشده إلى بعض المزارات والصلحاء وبعض التحصينات والدعوات والأوراد التي تحفظ صاحبها.

وفي تعداده لهذه المنازل والمزارات ذكر له مدينة عين ماضي وحثه على النزول فيها والاستفادة من علمائها والسلام على بعض أصحابه بها، كما أنه بالغ في مدح أهلها ووصفهم بالخير والعلم قائلا:

« ... ومنه إلى قرب عين ماضي ثم تصابحوها إن شاء الله، وهي قرية طلبة العلم، وأهل الخير، فأشحذ ذهنك لمسائلتهم، وسلم لنا على سيدي أحمد بن سالم وسيدي الزروقي ووالده سيدي أبي القاسم بن أحمد وسائر الطلبة » (العياشي أبوسالم، 2013: 63) .

فالملاحظ من خلال كلام العياشي ووصفه لعين ماضي أنها كانت حاضرة علم يكثر بها الطلبة تعقد بها المجالس العلمية وتناقش فيها المسائل كما سيأتي في رحلة الهشتوكي.

3– رحلة اليوسي : للإمام العلامة أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، المولود سنة 1040هـ/1631م والمتوفى في 23 ذي الحجة 1102هـ الموافق ل 16 ديسمبر 1691م بتَمزيت (الافراني محمد بن الحاج الصغير، 2004: 344) .

وكان انطلاق ركب الحجاج من فاس يوم السبت 14 جمادى الثانية 1101هـ/24 مارس 1690م وكان الرجوع إلى تَمزيت يوم الأحد 25 شوال 102هـ/ 21جويلية 1691م، وقد استغرقت الرحلة ذهابا وإيابا سنة قمرية كاملة و08 أشهر و11 يوما، وكاتب الرحلة في الحقيقة هو الابن الثاني لليوسي الذي رافق والده في هذه الرحلة وهو مَحمد (بالفتح) العياشي (ت 1131هـ/1719م) (اليوسي مَحمد العياشي بن الحسن، 2018: 19).

وقد اخترق اليوسي مدينة عين ماضي في طريق ذهابه فوصف أهلها بحفاوة استقبال الحجاج و اعتنائهم بالقرآن الكريم وعلومه ورغبتهم في ملاقاة أهل الصلاح و الخير

كما أنه ذكر اعتناءهم بعلم القراءات وسؤالهم عن أحكام التجويد وقد دخلها في شهر رجب الموافق لفصل الربيع حيث قال: « ثم صبحنا قرية عين ماضي يوم الأربعاء السادس عشر من رجب (24 أفريل 1690م) وأهلها يتلقون الحجيج فرحا وسرورا وأكثرهم طلبة يقرؤون القرآن ويرغبون في ملاقاة أهل الصلاح ويسألون عن آيات في القرآن و التجويد و التفخيم و الترقيق وكيفية ذلك » .(اليوسي مَحمد العياشي بن الحسن، 2018: 76) .

ثم أضاف قائلا: «مع ثقل المفرط وجفاء في طبائعهم وبلادة و شح و بخل». وهذا يناقض كلامه الأول في حفاوة الاستقبال والاعتناء بالقرآن (اليوسي مَحمد العياشي بن الحسن، 2018 : 76) .

ثم وصف ماءها بعذوبته وحلاوته قائلا: « وماؤها حلو عجيب» (اليوسي مَحمد العياشي بن الحسن، 2018 : 76).

4- رحلة الهشتوكي الحجازية: لأبي العباس أحمد بن محمد بن داوود بن يعزى بن يوسف الهشتوكي شُهرة الجزولي نسبا نزيل تمكروت (ت.عام 1127هـ/1715م) وعنوانها: "هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام و الوقوف بالمشاعر العظام و زيارة النبي عليه السلام". وهي رحلته الحجية الأولى و كان الإنطلاق يوم الثلاثاء آخر ربيع الآخر سنة 1096هـ/الموافق 1684م (بن سودة عبد السلام ، 1997 :253) .

وقد اخترق الهشتوكي مناطق الجنوب الغربي مرورا بالقنادسة ثم بوسمغون ثم ارباوات فالكراكدة وبعدها الغاسول حتى وصل إلى مدينة عين ماضي، حيث دخلها وقت الظهر فخرج أهلها لملاقاة ركب الحجاج مرحبين و فرحين بقدومهم وهذا الوصف بينه الهشتوكي قائلا:« ... ثم منه إلى عين الماضي و دخلناه قرب الظهر و لما قربنا إليه بأميال خرجت أهله لملاقاتنا فرسانا و ركبانا و رجالا فارحين بنا غاية و أخذوا يلعبوون بالخيل مع الحجاج ووقع ذلك اليوم فرح عظيم و سرور جسيم ووجدنا بلدهم ذات عيون و جنات تحكي بحسنها البدور المشرقات، وخرج إلينا فقهاؤهم وطلبتهم و كلهم يقرءون فمنهم من يدعي بالفقه و منهم يدعي بالنحو و منهم من يدعي بالتوحيد وسألني بعضهم عن قوله تعالى:(لكن الراسخون في العلم منهم و المومنون يومنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك والمقيمين ...) (سورة النساء ، الآية 161) . ومراده و المقيمين هل هو منصوب أو مخفوض وعلى ماذا عطف فأجبته بأنه يجوز فيه الوجهان و أصحها النصب على أنه مفعول بفعل محذوف تقديره و الله ربنا أعلم أمدح المقيمين... »(الهشتوكي ،مخطوط، اللوحة رقم: 119) .

ثم بدأ يبين شواهده من القرآن و السنة و كلام العرب ففصل له الهشتوكي المسألة و بين له أوجه الإعراب فيها و شواهد ذلك إلى أن قال أنه سلم له و قبل يده وطلب منه الإجازة في الأجرومية بعد أن قرأ بعض الأبواب منها عليه قائلا:

« ...فسلم وقبل اليد و طلب مني قراءة الأجرومية فقرأ علي منها أبواب و طلب مني فيها الإجازة فأجزته كما أجازني فيها أشياخنا إلى مؤلفها رضوان الله عليهم أجمعين ونفعنا ببركاتهم ءامين وحفظنا بجاههم عند الله من الوباء والطعن والطاعون وبجاه سيد الأنبياء و المرسلين صلى الله عليه وعلى ءاله و صحابته أجمعين ».(الهشتوكي ، مخطوط، اللوحة رقم: 120).

وهذا يدل على اعتنائهم وحرصهم على تعلم علوم الآلة خاصة النحو وهو ما يناقض كلام الرحالة الشيخ أبو العباس الهلالي السجلماسي (ت.1175هـ/1761م) خلال رحلته الحجية عام 1150هـ الموافق ل 1737م، عند حديثه عن أهل مدينة عين ماضي وصفهم بأنهم لا يعرفون من النحو والعربية شيئا ، فما حكاه عنهم يحتمل أنه في وقته اندرس هذا العلم و لم يبق من يدرسه ومن يعتني به و ستأتي الكلام على ذلك عند التطرق لرحلته الحجية .

ونرجع إلى الهشتوكي حيث بدأ يعدد المسائل التي طرحت عليه سواء في علم الفقه أو علم الكلام و العقائد، فسئل عن قول خليل في مختصره« وإن أعطته سفيهة ما ينكحها به ثبت الخ » (خليل بن اسحاق المالكي ، 2016: 150) .

وسأله آخر عن أقسام الإيمان ما هي و كم هي، وآخر عن المصلي الذي يقال بَانٍ في الأفعال قاضٍ في الأقوال... ، وآخر عن تعلق الصلاحي و التنجيري للقدرة و الإرادة.

ويظهر من خلال تنوع المسائل التي طرحت على الشيخ و التي أوردها بأجوبتها في رحلته المستوى العلمي للطلبة وشدة اعتناء أهلها بالعلوم .

ثم انتقل رحمه الله إلى ذكر مسألة استغربها من أهل عين ماضي مع كثرة أهل العلم والطلبة بها و التي ذكرها أيضا بعض الرحالة ممن مروا بمدينة عين ماضي وهي عدم اغتسال النساء من الجنابة و الحيض و خوفهم من استعمال الماء، وعاتب رجالهم على ذلك.

ثم أثنى على أهلها بشدة حبهم للعلم واشتغالهم به من قديم الزمان قائلا:

« ... وبالجملة فما رأيت فيهم محمودا إلا سرورهم وفرحهم بالركب المحمدي أكثر من غيرهم، وحبهم للعلم واشتغالهم به من قديم الزمان إلى الآن وقد حذرني منهم شيخنا القاضي الأريب أبو مروان سيدي عبد المالك ابن محمد التجمعتي (أنظر التعليق رقم: 01) . أيده الله قائلا أنهم يسألون كل من مر من بلدهم ممن وسم بالعلم وذكر أنهم سألوه حين مر عليهم عن من فاتته صلاة الصبح أعوام هل يقرأ في كل صبح القنوت أم لا. قال فأجبتهم بأنه يقرؤه فقالوا له أين دليله في مختصر خليل قال فقلت لهم أين أنتم من قول الشيخ في بكورة السعد على نحوه ما فاتته قال فسلموا ...» (الهشتوكي ، مخطوط، اللوحة رقم: 122 –123).

ثم ذكر (رحمه الله) كلام العياشي السابق الذكر فيما كتبه للشيخ القاضي أبو العباس المجليدي يبين له فيه تعداد المنازل الحجازية (العياشي أبو سالم ، 2013: 62 –63).

ثم غادر (رحمه الله) المدينة متوجها إلى مدينة تاجموت ، لكنه انحرف عنها مع ركب الحجاج بسبب الخوف من نبات الدرياس الذي يقتل الإبل عند الأكل منه وقد حذره أهل عين ماضي منه حيث قال: « ولما أردنا الخروج من عين ماضي أخبرنا الناس بأن الشيخ سيدي أحمد بن ناصر أيده الله ونفس في عمره للإسلام بالنبي عليه والصلاة والسلام وءاله الكرام وصحابته الأماثل الأعلام انحرف عن طريق تاجموت لما به من نبت يقتل الإبل حيث رعته يسمى الدرياس ... ».(الهشتوكي ، مخطوط، اللوحة رقم: 123).

5– الرحلة الناصرية: للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي المدعو بالخليفة، ولد في 18 رمضان 1057هـ/1647م وتوفي عام 1129هـ وقيل 1128هـ بتامكروت (الافراني محمد بن الحاج الصغير، 2004: 364) .

وقد حج رحمه الله أربع حجات، كانت الأخيرة منها عام 1121هـ/1709م والرجوع يوم 06 رمضان 1122هـ/1710م، وهذه الرحلة الحجازية هي التي ذكر من خلالها مدينة عين ماضي ووصفها بأنها بلدة يكثر فيها طلبة العلم (حاضرة علم) وأهل محبة ونية صادقة كما وصفهم بكثرة الجود والكرم، وذكر مسجد البلدة العتيق وأنه صلى فيه تبركا وأنه لم يطل مدة الإقامة بها في هذه الحجة حيث قال:

« ونزلنا عين ماضي عصر الأحد التاسع رجب رابع شنتبر وتلقانا أهلها أفواجا أفواجا وأقمنا به يوم الإثنين لاستراحة الإبل وتنعيل الدواب». (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 130).

ثم أثنى على طلبة العلم بها وعدَّد بعض فقهائهم قائلا:

« ... وعين ماضي أهلها كلهم طلبة علم يقرءون خليلا وكبيرهم سيدي أحمد الدهصاء بالدال المفتوحة والهاء الساكنة وصاد مهملة على وزن حمراء، إلا أنه كبير السن به علة لا يقدر على المشي إلا راكبا على حمار وأولاده الثلاثة فقهاء سيدي عبد الرحمان وسيدي محمد وسيدي زروق ومن فقهائهم سيدي أبو حفص وسيدي محمد بن عيسى بن يحي وسيدي بلقاسم ابن عيسى وسيدي عيسى بعكاز مؤدب الأطفال وغيرهم ». (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 130).

حيث ذكر رحمه الله صفوة من فقهاء عين ماضي وهم احدى عشر فقيها ثم وصفهم بالخير وصدق النية قائلا:

« وهؤلاء امتلأت قلوبهم محبة وصدق » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 130)

وبعد كلام أورده في تسلط مولاي عبد المالك عليهم وأخذ بعض ثرواتهم انتقل إلى وصف ماء عين ماضي وعيونها وبساتينها وكرم أهلها قائلا:

« وماؤهم طيب بارد وعينهم خرجت من سفح جبل ودخلت للجنات وضيفوا الركب كثر الله خيرهم » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد،2011: 131).

كما أنه نبه على بعض أوصاف أهلها من صفاء النية والحرص على العلم والخير و الإعتناء بنسخ الكتب وذلك ما شاهده في حجته السابقة لأن هذه لم يطول الإقامة لضيق الوقت حيث قال:

« وفي عام ستة وتسعين (1096هـ حجة) طلبوا منا أن نترك لهم نسخة الغنيمة لوالدنا لينسخوها. فتركناها لتعم الفائدة، والله يصلح النيات بمنّه وكرمه، وهم خلصاء النية فينا وفي غيرنا تقبل الله أعمالهم وأصلح أفعالهم، وطلب منا بعضهم الذهاب لبيته فأسعفناه، وذهبنا مع جماعة من أصحابنا فأطعمنا جزاه الله خيرا ووقانا وإياهم والمسلمين ضيرا » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 131) .

ثم ذكر مسجدهم القديم (العتيق) وأنه صلى فيه صلاة الضحى تبركا به وبمن صلى فيه، كما أشار إلى نسب أهلها وأنهم من أهل بيت النبوة على ماصح عندهم قائلا:

« ومررت بمسجدهم ودخلت إليه وصليت به سبحة الضحى تبركا به وبمن صلى فيه وعلَّم فيه من أسلافهم الكرام، وهم على ما صح عندهم شرفاء أهل البيت زادهم الله علما ودينا وعناية وعافية ووقاية، وهم منعزلون بقريتهم لا يساكنهم غيرهم، وهم عاكفون على قراءة الفقه ويعظم صغيرهم كبيرهم، وكلهم تفرعوا عن أصل واحد، ولا حسد بينهم ولا تباغض » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد ، 2011: 131) .

– ثم ذكر مسألة تطرق لها بعض من مر بمدينة " عين ماضي " وهي قضية عدم اغتسال النساء من الحيض والجنابة خوفا من استعمال الماء.

قال الناصري « وأكبر من هذا (عدم الحجاب) أن نساءهن لا يغتسلن من جنابة ولا من حيض ولا نفاس، وكلمناهم على ذلك أيضا ولُمْنَاهُم فاستعذروا بأن ذلك يضر بهن في أرحامهن، على أن جماعة ممن يوثق به من أصحابنا قالوا: رأينا نساءهم يغسلن الصوف وسط الساقية الجارية بماء بارد فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نسأله سبحانه أن يهدينا وإياهم إلى الصراط المستقيم.....، ولضيق الوقت بنا وإرهاقنا ما أطلنا المكث عندهم ولا دخلنا قريتهم، كما أرهقنا الوقت أيضا عن المرور بميسرة (أنظر التعليق رقم: 02)، والتبرك بآثار الصالحين الذين مروا بها وسلكوها ».(الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 131) .

ثم بدأ يصف ميسُرة، وذكر رأي أهل عين ماضي في زيارتها والتبرك بآثار الصالحين بها قائلا « ... وأهل عين ماضي ينكرون زياراته وقالوا: إن الرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد، وهذا ليس منها. وتكلمنا معهم ولا معتمد لهم في ذلك سوى ما ذكر... » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 131-132) .

ثم بعد ذلك انطلق الركب إلى مدينة تاجموت وذلك يوم الثلاثاء ونزلوها ظهرا ومنها إلى مدينة الأغواط، أما في طريق رجوعه من الرحلة الحجازية فأيضا سلك نفس الطريق وعرج على مدينة عين ماضي لكنهم لم ينزلوا بمدينة تاجموت لما بها من نبات الدرياس المضر بالإبل وهذه الحادثة أيضا ذكرها الهشتوكي في رحلته الحجازية عندما خرج من عين ماضي نصحه أهلها بأن يتجنب مدينة تاجموت لما فيها من نبات الدرياس القاتل للإبل وأخبروه بأن الشيخ ناصر الدرعي قد مر بجانبها ولم يدخلها ،وقد التقى الدرعي في طريق عودته بعين ماضي ببعض أصحابه ممن تخلف عن ركب الحجاج فلحقوا به في مدينة عين ماضي، وذلك في مستهل شهر شعبان ليلة الخميس قال:

« ... ورحلنا لعين ماضي قبل الاصفرار وراحت أوليات الركب طَفلا (أي آخر النهار بعد الاصفرار) وأُخرياته مَغربا يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رجب والثاني عشر من سبتمبر وتلقانا أهلها كبارا وصغارا قرب البلد ،ونزلنا خارج البلد

على مسيل الماء وسلم الله الإبل والحمد لله من تناول الدرياس فضلا منه وامتنانا » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 719- 720)

ثم ذكر نكتة فيها كيفية حماية الإبل من الدرياس وكيفية علاج الإبل التي تناولت منه.

ثم قال: « وأقمنا يوم الأربعاء واستهل هلال شعبان ليلة الخميس ولحق بنا اصفرارا الأحب سيدي محمد بن موسى الاسحاقي مع سيدي مسعود من أولاد سيدي أبي يعزى وسيدي عبد القادر المكلدي وسيدي الشاوي أخوا الأحب سيدي المرجاني مع بعض الصعاليك جاؤوا وحاجبين مع الركب لما سمعوا بنا أزمعوا السير إلينا فرحا بملاقاتنا والله ينفعهم بمنه وكرمه واستفدنا بعض أخبار البلد جملة ... » (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد ،2011: 720 – 721) .

6- رحلة الحُضَيْكي الحجازية : للعلامة الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الحُضيكي اليوسي المولود في شعبان1118هـ/1706م وتوفي يوم19رجب 1189هـ/1757م ،وكان إنطلاق ركب الحجاج سنة 1152هـ/ 1740م (الكتاني عبد الحي: ج1، 351 -352). انطلاقا من سوس لكنه لم يذكر تاريخ العودة لأن ما وجد من رحلته هو وصوله إلى مدينة مصر في طريق العودة

وقد تكلم الحضيكي عن مدينة عين ماضي في طريق ذهابه بعد أن مر على الغاسول وميسرة ووادي سيدي طيفور وجبل الملح ثم دخل عين ماضي فوصف أجنتها وسورها وصفة أهلها قائلا:

« ونزلنا بعده قرية يقال لها عين ماضي فيها أجنة تين وعنب محفوفة بالحوائط والزروب وللقرية كذلك سور ممنوع ، ونساؤها يرعن بالحسن والجمال إياك ثم إياك ياأخي أن تدخل القرية ، والزم منزلك وخباءك ، واغضض بصرك فإنهن يفتن من رمقهن ، ويخرجن للتسوق مع الحاج في منزله ، ولا يبيع ولا يشتري في تلك البلاد غالبا إلا النساء ولقد افتتن بهن عامة الحجاج إذ نزلنا بها والعياذ بالله من فتنة الأهواء واتباع الشهوات » (الحضيكي أبي عبد الله محمد السوسي، 2011: 84-85) . وهذه الأمور ذكرها الناصري والهشتوكي في رحلتيهما .

ثم ذكر مخالطة أهلها للعلم وادعائهم النسبة لآل البيت كما أشار إلى العادة الشنيعة التي يتصف بها نساؤهم وهي عدم التستر ولبس الحجاب وكذا عدم الإغتسال من الحيض والجنابة وهي المسألةالتي أثارت فضول الكثير من الرحالة الذين مروا بالبلدة قائلا :

« ولبعض أهلها نوع من مخالطة العلم ، وأنت ترى نساءهم كذلك متبرجات بزينتهن لا حياء معهن ولا دين متغلبات عليهم وحكي أنهن لا يصلين أصلا ، ولا يغتسلن من الحيض، ولا من الجنابة مخافة من الماء مع أنهم ادعوا الشرف » (أبي عبد الله محمد الحضيكي السوسي ,2011: 85)

7– **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية** : للشيخ أبي محمد سيدي الشُرفي بن محمد الإسحاقي (ت 1150 هـ/1737م) المدعو الجيلاني (بن سودة عبد السلام، 1997: 237) .

وهي رحلة دونت من طرف الإسحاقي بأمر من السلطان مولاي عبد الله (ت 1171 هـ/1757م) تخليدا لذكرى حج والدته الأميرة خثاثة بنت بكار المغافري (ت 1155هـ/1742م) زوجة السلطان مولاي إسماعيل ، فالرحلة عبارة عن وفادة رسمية تضم أم السلطان ونجله الأمير محمد ونخبة من العلماء والفقهاء يتصدرهم الوزير الإسحاقي ، وكان الخروج يوم الجمعة 11 جمادى الثانية 1143هـ/1730م من دار الخلافة بمكناس، أما الإنطلاق الرسمي لهذا الركب الحجازي الفاسي يوم الخميس 25 جمادى الثانية 1143هـ/1730م من مدينة فاس ، والوصول إلى مكة كان ليلة 07 من ذي الحجة 1143هـ/1730م (الاسحاقي أبي محمد سيدي الشرفي، 2017: ج1،06). ولم نهتد إلى وقت العودة.

وقد اخترق الاسحاقي مدينة عين ماضي ذهابا بعد خروجه من قرية المشرية (أنظر التعليق رقم: 03) . فوصف المراحل بينها وبين عين ماضي حتى وصل إلى مدينة عين ماضي فبدأ يصفها ويصف أهلها قائلا:

« ومن الغد تقاضينا السير أحسن تقاضي فكان النزول على عين ماضي، وإذا هي دشرة على نشز من الأرض، تحف بها مهامه فيج مهاب للريح، منابت للشيح (نبات معروف) بها أشجار من الفواكه، دخلها من شاء من أهل الركب، اشتروا منها وباعوا، من جملة ما اشتروا منها الرمان ونزل علينا بهذه الدار وبالتي قبلها مطر غزير ما أمسكته الخيام لقينا منه أمر إمرا ، وتلقى أهل القرية المذكورة ولد سيدنا نصره الله سيدي محمد أصلحه الله خارج البلد على نحو أربعة أميال، وأظهروا الفرح والسرور، ولعبوا على فرسان لهم مع وُصفان سيدنا نصره الله وغيرهم، لكن أهل القرية المذكورة ثقال على أكتافها ميل، وأقمنا بهذه القرية يوما واحدا قضى الناس فيه بعض مآربهم » (الاسحاقي أبي محمد سيدي الشرفي، 2017: 272- 273).

ثم ذكر (رحمه الله) ما يحدث في دار قاضي البلد واختلاط النساء والرجال بها، و التقائه بفقيه البلد وتذاكُره معه في بعض المسائل الفقهية ووصفه بقلة الفقه وأنه يحفظ فقط متن خليل مع تصحيف فيه فادح دون فهمه وفقهه، وتناقش أيضا معه في مسألة عدم اغتسال نساء المدينة والتي أثارت فضول كثير من الرحالة المغاربة، فحاولوا معرفة أسبابها ودواعيها لإصدار فتوى فيها، كما مر معنا في الرحلات السابقة، فهاهو الاسحاقي بدوره يسأل فقيه البلد عن سبب عدم اغتسالهن فأجابه إجابة غير مقنعة، ثم ذكر مسألة الحجاب عند أهل عين ماضي وأنهم لايبالون به .(الاسحاقي أبي محمد سيدي الشرفي، 2017: 273 – 273). ثم وصف ماءهم ومنبعه قائلا:

« وأهل هذه القرية ماؤهم يصل إليهم في ساقية كبيرة هابطة في سفح الجبل المقابل لها المسمى بجبل المعمور (العمور). وربما قطعها عنهم جيرانهم وأعداؤهم أهل الطريفية، فلا يرسلونها لهم حتى يصالحوا » (الاسحاقي أبي محمد سيدي الشرفي، 2017: 274) .

8- رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي: أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي السجلماسي (ت. 1175هـ/1761م) بتافيلالت، المسماة " التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة السلام "(بن سودة عبد السلام، 1997: 237) .

وهي رحلة انطلقت من سجلماسة وبالضبط من الزاوية الزَينيَة بتافيلالت وذلك في 13 جمادى الآخرة سنة 1150هـ الموافق لـ 06 أكتوبر 1737م ، حيث اخترق هذا الركب مدينة عين ماضي في طريق ذهابهم بعد المرور ببعض مناطق مدينة البيض كميسرة ووادي المخيلي ومنطقة أولاد سيدي طيفور، حيث ذكر الهلالي كرم أهل عين ماضي وحفاوة استقبالهم وخروجهم لملاقاتهم وكثرة طلبة العلم بها قائلا:

« ... ثم ارتحلنا فمررنا بجمال للأعراب حين بدت لنا عين ماضي واشترى منهم الحجاج جلودا ولحما وغير ذلك ثم بلغنا عين ماضي حين ارتفاع النهار، وتلقانا كثير من أهلها من بعيد وكنت قد سمعت أن طلبة العلم بها كثير، فسألت أحد من تلقانا عن فقيهها ما اسمه فقال الفقهاء فيها كثيرون فسألته عن أكبرهم علما فقال لي كلهم كُبراء ففهمنا أنه عامي لم يميز مراتبهم فسألته عن قاضيهم وقلت لعلهم لا يستقضون إلا أعلمهم فقال لي كلهم قضاة، فنزلنا قرب القرية وهي قرية منقطعة بعيدة عن العمارة ذات ماء معين والأعراب يُوذون أهلها كثيرا حتى أنهم ذكروا لنا أنهم تركوا الحرث ليلا تأكله الأعراب كما أكلوه في العام الماضي ولهم بُحيرات (بساتين) داخل سورهم فيها أشجار وقَرع وللقرع عندهم شان حتى أن رجلا جاء يطلب برنسا يشتريه بقرعة وذكر لنا جاء يطلب بعيرا ... يشتريه بالقَرع، وأقمنا بها يومنا وجاء الأعراب بالإبل وغنم للبيع ... » (الهلالي أبو العباس أحمد الشيخ بن عبد العزيز، اللوحة رقم: 17) .

ثم وصفهم بكثرة حفظهم للقرآن وعنايتهم بالعلم خاصة الفقه و العقائد و التفسير و علم الحديث قائلا:

« ... وأهل هذه القرية كثير منهم يحفظون القرآن ويقرؤون مختصر الشيخ خليل ورسالة ابن أبي زيد، وصغرى السنوسي وكتاب ابن أبي جمرة في الحديث ويسردون تفسيري الثعالبي والخازن وهم لا يعرفون من النحو شيئا وكذا غيره من علوم الآلة ، ولا يرحلون للعلم بل يقنعون بما عندهم ويأخذ بعضهم عن بعض ويلازمون قراءة الفقه، أخبرني شيخ منهم ذو سن عالية أنه استمر يُقرئ المختصر خمسة وعشرين عاما، وأنه لا يعرف إعراب البسملة ولا قرأ شيئا من كتب النحو ولو الأجرومية وكذلك غيره منهم » (الهلالي أبو العباس أحمد الشيخ بن عبد العزيز، اللوحة رقم: 17 -18) .

ثم ذكر أنجب فقهائهم في نظره وأنه جلس معه وتحاور في بعض المسائل:

« وأنجبهم فيما رأيت سيدي محمد الأحمر حفيد سيدي أحمد بن سالم الذي ذكره أبو سالم (يعني العياشي) في وصيته المسماة بالرحلة الصغرى وقد تكلمت معه في شأن قراءتهم للكتب بلا عربية فقال لي ما معناه إنما نأخذ منها ما ظهر وسهل ونترك ما وراء ذلك لأربابه وهذا مما يدل على نجابته و أما غيره فيحسبوه أن لا غاية وراء ما وصلوا إليه منها، وقد حضضته على قراءة العربية فقال لي لا نجد من يقيم لنا هنا يعلمنا ولا نقدر على السفر للتعلم وأخبروني أنهم لا أحباس

عندهم وإنما يُقرءون لله تعالى و ما أحسن هذا القصد منهم لو توفرت شروط الإقراء و بالجملة فهم خير من كثير من أهل هذه النواحي فإن العلم فيها ركدت ريحه .. » (الهلالي أبو العباس أحمد الشيخ بن عبد العزيز، اللوحة رقم: 18).

9– الرحلة الناصرية الكبرى: للإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري المولود سنة 1145هـ/1732م وتوفي ليلة السبت 12 صفر 1239هـ/ 18 أكتوبر 1823م بتامكروت (مخلوف محمد بن محمد، 2003: ج 1، 546).

انطلقت الرحلة من الزاوية الناصرية بتامكروت يوم الخميس 03 جمادى الثانية 1126هـ الموافق 16 ماي 1782م بعد صلاة الظهر، وكان الرجوع إلى الديار يوم الأربعاء 07 رمضان 1197هـ/16 أوت 1783م وقد استغرقت هذه الرحلة ما يقارب ستة عشر شهرا ذهابا و إيابا.

وقد اخترق الناصري مدينة عين ماضي ذهابا و إيابا متبعا خط السير المعتاد من طرف ركب الحجاج المغاربة فقد مر بمدينة بوسمغون وهناك التقى بالشيخ سيدي أحمد التجاني (رضي الله عنه) (أنظر التعليق رقم 04) عائدا من مدية تلمسان وقد تذاكر معه فقال:

« ورد علينا هاهنا أي بأبي سمغون رجل ينتمي للعلم و الصلاح من شرفاء عين ماضي اسمه سيدي أحمد التجاني رفض سكن بلده بعد تطليق زوجته وانقطاعه للجولان شرقا وغربا، وقدومه الآن كان من تلمسان مرغما من بعض أمراء الترك بها رغم أنه أخذ عن الشيخ السمان المدني و أجازه، وأخذ العهد على الشيخ محمود الكردي المصري، وتذاكرنا معه مسائل حتى انجرى الكلام لعدم تحسين الظن بمُتربطة أدعياء الزمان فانشد لغيره (من المتقارب)

إذ لم يكن إلا الأسنة مركبا فما يمنع الإنسان إلا ركوبها

ومن تشديده لما حضرت صلاة العصر... » (الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام ، 2013: ج1 ، 194 – 197) . وتناقشا في عدة مسائل ذكرها هناك في رحلته، ثم خرج من بوسمغون قاصدا الشلالة حتى وصل إلى ميسرة و ذكر مسجدها و التبرك به وزيارته وذكر هنا أن أهل عين ماضي ينكرون زيارته عن أبي العباس الناصري السابقة لكنه دعم هنا بن عبد السلام رأيهم قائلا :

« وفي الرحلة الناصرية (يقصد بها رحلة أبي العباس) "أهل عين ماضي ينكرون زيارة ميسرة محتجين بأن الرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد، وهذا ليس منها وتكلمنا معهم ولا معتمد لهم في ذلك سوى ما ذكر"، قلت(القائل بن عبد السلام) والحق معهم، فالأولى اليوم هجرانه لا بالقلب سيما لمن يقتدى به وكيف وقد علمت معتقد العامة فيه، ولعلم طلبة عين ماضي بمعتقدات العامة فيه هجروا هم الزيارة له، وجعلوا يحذرون الناس منها حسما لمادة ذلك . وهم أعرف ببلادهم–أهل مكة أعرف بشعابها– على أن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة كزيارة الأولياء ونحوها اختلف العلماء فيها

بالجواز وغيره ومحل الخلاف مالم تبن عليه مفسدة دينية وإلا حرمت بلا نزاع » (الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: ج 1، 201).

وأخبر الناصري أن المخيلي قرب مسجد ميسرة هو مجتمع الركبين الفاسي و السجلماسي، ثم ذكر بعض المناطق التي بين المخيلى وعين ماضي إلى أن وصلها قرب الزوال ووصف أهلها بحفظ القرآن و تقدم العلم في أسلافهم و أنهم من آل البيت الشريف وقبيلتهم "تعرف بالتجاجنة" وذكر بعض أعيان البلد بها قائلا:

« ووصلنا عين ماضي قرب الزوال .... وهذه البلدة عامرة بأهلها، وغالبهم شرفاء من أهل البيت من قبيلة بالظهرا تعرف بالتجاجنة يحفظون القرآن وتقدم في أسلافهم العلم، وأما اليوم فالعلم قد ذهب أهله، ولم يبقى إلا إسمه فقد دخلت البلد وسبحت سبحة الضحى بمسجدهم، وأضافنا آخذ العهد الناصري منهم وهو سيدي عبد القادر بن الشيخ أحمد بن يحي بن أبي عامر تقبل الله منه، وجاءنا المسن فقيه البلد سيدي محمد بن زيان فمنه يستمدون وعليه يعتمدون وله بعض ممارسة بألفاظ مختصر خليل، أوقفني على التقييد الكبير لأبي الحسن الصغير على المدونة (أنظر التعليق رقم 05) . في ستة أجزاء ضخام من الكبير حُبوسا بدأه بمقدمة في فضل العلم يرمز بالضاد لعياض وبالشين لإبن رشد والخاء للخمي والميم لابن يونس والعين والقاف لعبد الحق وربما استغنى بالقاف وحدها له، والشيخ عبد الله لمؤلفه المُمْلي ... » (الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام ، 2013: ج 1، 203) .

ثم قال: «وليس في الخزانة الناصرية من تقييد الشيخ أبي الحسن هذا إلا جزءان نسأله الله أن يكمله لنا، فنعم الكتاب والله، ولهم سيما عند أبناء الدهصاء (أنظر التعليق رقم 06) منهم كتب كثيرة متداولة، ولما جرى ذكر التوضيح على ابن الحاجب قال إبن أبي زيان المذكور: " أشياخنا يقولون أنظر التوضيح تستريح" ثم ودعنا الله تعالى وقرأ «يستبشرون بنعمة من الله وفضل» إلى « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل» (سورة آل عمران، الآية 171- 174)، ثلاثا "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" إلى"وينصرك الله نصرا عزيزا" (سورة الفتح، الآية 01)، ثلاثا » (الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام 2013: ج 1، 204).

وهذا يدل على أن عين ماضي حاضرة علم تزخر بمكتبات و خزائن للمخطوطات تحوي أمهات كتب فقه المالكية ونوادر المصادر و المراجع حتى أن الناصري تأسف لعدم وجود تقييد أبي الحسن الصغير كاملا في مكتبة زاويتهم الناصرية.

ثم انتقل إلى وصف جمال المدينة و حصانتها وعذوبة مائها و كثرة بساتينها وحدائقها قائلا:

« وبلدتهم هذه حصينة مبنية كلها بالحجارة دارت بها الأجنة والحدائق وفتحوا لها الأبواب من داخل البلد ومن خارج وهي مشتملة على فواكه وما أكثر لديهم التفاح، تسقى الأجنة كلها من عين واحدة خارجة من سفح جبل بقربهم، عذبة باردة، يزعمون أنه يورث التفوق في الأيدي والأرجل في زمن الشتاء ولازالوا يشكون ظلم أولاد يعقوب الساكنين في

غابة الجبل في التعدي على مائهم هذا، فربما قطعوه عنهم في بعض الأحيان ظلما وعدوانا » (الناصري أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: 203).

ثم انتقل إلى المسألة التي قدمت أنها أثارت فضول الكثير من الرحالة المغاربة و هي مسألة عدم اغتسال نساء المدينة من الجنابة و الحيض خوفا من الضرر وأن الإغتسال بالماء يصيبهم بالعقم كما يزعمون .

وكذلك أثار مسألة تركهن الحجاب وتوليهن البيع والشراء بدل الرجال وترك أغلبهم للطهارة المائية والاستغناء عنها بالطهارة الترابية (التيمم).

ثم قال: « ورباعهم وديارهم ومياههم كلها حبس على الذكور دون الإناث ومن ساكنهم من غيرهم فالارفاق أو الكراء هكذا حدث البعض منهم وزرنا مقبرتهم وفيها سيدي أحمد بن الدهصاء وغيره ممن سمى ابن الناصر في الرحلة (الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد، 2011: 130 – 131)، وانقطع العلم في نسل الجميع،و إنا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب العلم وأهله» (الناصري أبو عبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: ج 11، 205).

أما في طريق العودة فقد وصل إلى مدينة عين ماضي في الخامس من شهر شعبان و استقبله أهلها خاصة آخذ العهد الناصري و ضيفهم، ووجهت للناصري بعض الأسئلة من طرف الحجاج وأهل البلد بعضها في الفقه وبعضها في تعبير الرؤى وبعضها في علوم الحديث ومصطلحه ثم غادرها متجها نحو منطقة إرباوات بضواحي البيض حالياقال(رحمه الله):

« وفي الخامس من شعبان وصلنا عين ماضي فرحب بنا أهلها فأنزلنا الأبر السيد عبد القادر–آخذ العهد الناصري– بحديقة له وأجزل ضيافتنا كغيره من أهل البلد تقبل الله منه...»(الناصري أبوعبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: ج2، 906 – 907).

« ووقع السؤال من بعض الحجاج ونحن بعين ماضي... » وبدأ يسرد الأسئلة التي وجهت إليه إلى أن قال: « وسئلت من أهل البلد عمن باع شاة للذبح بدارهم إلي أجل فذبحها المشتري ثم أراد البائع أن يأخذها بدلها شعيرا أو غيره من الطعام ؟ فأجبت أنه اقتضاء الطعام من ثمن طعام وهو ربى محرم، إذا الشاة المرادة للذبح سيما إن كانت خصيا في حكم المذبوح من اللحم وهو طعام، وقد جرى النزاع في النازلة بين الطلبة فوافقني شيخهم ابن زيان على فتواي وربنا أعلم بالصواب ». (الناصري أبوعبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: ج2، 907).

.ثم طرحت عليه مسائل أخرى لا نطيل في ذكرها يرجع فيها إلى نص الرحلة (الناصري أبوعبد الله محمد بن عبد السلام، 2013: ج2، 908 – وما بعدها).

الخاتمة:

وفي الأخير أرجوا في نهاية هذا البحث المتواضع أن أكون قد وفقت في تقديم صورة وافية عن أهمية الرحلة الحجازية (الحجية) المغاربية في التعريف بمدينة عين ماضي وبيان جانب من تاريخها الثقافي والعلمي والجغرافي، وإذا كانت هناك نتائج يمكن استخلاصها من الموضوع فيمكن حصرها فيما يلي:

1)أن كتب الرحلة الحجازية المغربية تكتسي أهمية في التأريخ لمدينة عين ماضي خاصة ومدن الجزائر عامة في عهد أهمل فيه الجانب الثقافي والحضاري لهذه المناطق وقلّت فيه حركة التدوين والتأليف .

2) أعطتنا هذه الرحلات صورة جغرافية لمدينة عين ماضي حيث وصفها الرحالة بأنها مدينة حصينة محاطة بسور متين تتوزع فيها الأجنة والبساتين من كل الجوانب، وتكثر فيها الفواكه والثمار وتجري تحتها المياه العذبة .

3) هذه الرحلات زودتنا بمعلومات مهمة حول الجانب العلمي والثقافي الذي كانت تزخر به عين ماضي فهي تعتبر حاضرة علم يكثر بها طلبة القرآن والفقه وتزخر بمجموعة من الفقهاء، كما أنها كانت تزخر بمجموعة من المكتبات والخزائن التي تجمع نوادر الكتب والمخطوطات.

4) كذلك هذه الرحلات رسمت لنا الحالة الإجتماعية لسكان المنطقة حيث وصفهم جل الرحالة بحفاوة الاستقبال وسعة الكرم، وشدة الحرص على الاستفادة من أهل العلم والتبرك بأهل الصلاح والخير.

5) أدعوا أبناء عين ماضي الغيورين عليها أن يعيدوا إحياء مجد أجدادهم ويجمعوا شتات تاريخ خاصة ما هو باقي وقد مر معنا في الرحلة الناصرية وجود نوادر كتب الفقه.

التعليقات والشروح:

التعليق رقم 01: الإمام الفقيه العلامة القاضي النوازلي أبو مروان عبد المالك بن محمد التجموعتي السجلماسي قام برحلة حجازية له عدة مؤلفات في غاية الدقة والإتقان منها شرح رائية بن ناصر كان ينظم الشعر توفي ليلة الثلاثاء 05 صفر 1118هـ .(محمد بن الطيب القادري، 2011: 180).

التعليق رقم 02: ميسرة عبارة عن منطقة بها أنقاض مسجد ومقبرة قديمة تقع بتراب ولاية البيض، يتوافد عليها الزوار للتبرك ، ذكرها الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته الصغرى والكبرى(ماء الموائد) وذكرها غيره من الرحالة وهي طريق ركب الحجاج السجلماسي والفاسي بين المخيلى وواد الاشبور (تبعد عن مقر ولاية البيض بحوالي 25 كلم).

التعليق رقم 03: المشرية قرية صغيرة تابعة لولاية البيض وتعرف بالمشرية الصغرى حتى تميز عن المشرية الكبرى (مشرية عنتر) التابعة لولاية النعامة، وقد أخطأ بعض محققو الرحلات الحجازية المغربية، حيث أشاروا إلى هذه الأخيرة لجهلهم بجغرافية المنطقة، وأصل المشرية الصغرى عين ماء اشتراها الشيخ أبو حفص بن عبد القادر المعروف بسيد الشيخ مع ابن

أخته سيدي عطاء الله بن ذهيبة (بلعابد) لأولاد سيدي علي بن يحي وهي تبعد عن مقر ولاية البيض ب:16كلم (خليفة بن عمارة، 2014: 237-238).

التعليق رقم 04: الشيخ العلامة سيدي أبو العباس أحمد بن محمد التجاني مؤسس الطريقة التيجانية ولد عام 1150هـ/1737م، بعين ماضي، وتوفي عام 1230هـ/1814م بفاس، كان عارف أهل زمانه (الحاج أحمد سكيرج، 2002 : 9-10) (د. عبد الرحمان طالب، 2004 :06-12)

التعليق رقم 05: تقييد أبي الحسن على المدونة عبارة عن تأليف في فقه الإمام مالك ، للفقيه أبي الحسن الصُغير علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي انتهت إليه رئاسة الفقه والأصول بفاس، تولى قضاء تازة في عهد السلطان أبو يعقوب يوسف المريني ، توفي سنة 719هـ (ابن فرحون، 2003 :ج 02، 108-109).

التعليق رقم 06: سيدي أحمد الدهصاء الذي التقى معه أبو العباس الناصري في رحلته ووجده كبير السن وذكر أبناءه الثلاثة، وقد مر الكلام عليه (أبو العباس أحمد بن محمد الدرعي ،2011: 130-131)

قائمة المصادر و المراجع :

القرآن الكريم

1. ابن سودة، عبد السلام، (1997)، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط1، لبنان: دار الفكر.
2. ابن عمارة، خليفة، (2014)، كتاب النسب الشريف وشرفة الجنوب الغربي، ترجمة: بوداوود اعمير، ط1، عين الصفراء الجزائر: مكتبة النصر.
3. ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد، (2003)، الديباج المذهب في بيان أعيان المذهب، تحقيق:الدكتور علي عمر، ط1،ج01، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.
4. ابن هطال ،أحمد بن محمد التلمساني ،(2010)، حملة الباي محمد الكبير على قصور جبل عمور والأغواط ، تحقيق الأستاذ ناصر مجاهد، ط01 الجزائر : المطبعة العربية.
5. الإسحاقي، أبي محمد، سيدي الشرفي، (2017)، رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية، دراسة وتحقيق: د. محمد الأندلسي، ط1،ج01، المملكة المغربية : منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
6. الأغواطي، الحاج ابن الدين، (2011)، رحلة الأغواطي- ضمن مجموع رحلات، جمع وتحقيق أبو القاسم سعد الله ،طبعة خاصة الجزائر : دار المعرفة الدولية.
7. الإفراني، محمد، بن الحاج الصغير (2004)، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق: د. عبد المجيد خيالي، ط1، المملكة المغربية : مركز التراث الثقافي المغربي.
8. بلحميسي، مولاي، (1981)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

9. الجزائري، محمد ،بن الأمير عبد القادر، (2015)، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، اعتنى به: أ. الداودي بوخاري و أ. رابح قادري ، ط2، ج02 ، الجزائر: دار الوعي .
10. الحضيكي، أبي عبد الله محمد، السوسي، (2011)، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: د. عبد العالي لمدبر، ط1، المملكة المغربية : دار الأمان مع الرابطة المحمدية للعلماء.
11. الحضيكي، محمد بن أحمد، (2006)، طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، ط1،ج01-ج02، المملكة المغربية: مطبعة النجاح الجديدة.
12. خليل، بن اسحاق المالكي، (2016)، متن المختصر، تعليق: ألب ولد المصطفى، ط1، لبنان: دار ابن حزم.
13. الدرعي، أبو العباس، أحمد بن محمد، (2011)، الرحلة الناصرية، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع.
14. الراشدي ، أحمد بن محمد بن سحنون ،(2013)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، طبعة خاصة ، الجزائر : دار المعرفة الدولية .
15. سكيرج، الحاج أحمد، (2002)، كشف الحجاب عمن تلاقي مع الشيخ التجاني من الأصحاب، لبنان: المكتبة الشعبية.
16. الشرفي ،أبو عبد الله، محمد بن الطيب ،(2018) الرحلة الحجازية، تحقيق الأستاذين نور الدين شوبد – حسناء بوتوادي ، ط1،ج01-02، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
17. طالب، عبد الرحمان، (2004)، الشيخ سيدي أحمد التجاني(رضي الله عنه) ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية، وهران –الجزائر: (بدون دار النشر).
18. العياشي، أبوسالم، (2011)، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية الموسومة بـ " ماء الموائد"، تحقيق: الشيخ أحمد فريد المزيدي، ط1، ج2، ، لبنان: دار الكتب العلمية.
19. العياشي، أبوسالم، (2013)، رحلة العياشي الحجية الصغرى الموسومة بـ : تعداد المنازل الحجازية، تحقيق ودراسة: عبد الله حمادي، ط1، لبنان : دار الكتب العلمية.
20. القادري، محمد بن الطيب، (2011)، كتاب الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج للقادري، ط1، الجزائر: طبعة دار الأبحاث.
21. الكتاني، عبد الحي، (2013)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، باعتناء: د. إحسان عباس، ط4، ج1، تونس: دار الغرب الإسلامي.
22. مخلوف، محمد بن محمد، (2003)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تعليق:عبد المجيد خيالي، ط1، ج 01، لبنان: دار الكتب العلمية.
23. المشرفي، الشيخ عبد القادر، الجزائري، (2017)، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر : دار الوعي.
24. المنوني، محمد، (1953)، ركب الحاج المغربي، المملكة المغربية: مطبعة المخزن.
25. الناصري، أبي عبد الله، محمد بن عبد السلام، (2013)، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق:د.المهدي الغالي، ط1، ج01-02، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
26. الهشتوكي، أبو العباس،أحمد بن محمد، هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، مخطوط رقم 121 بالمكتبة الوطنية بالرباط، (نسخة خاصة).

27. الهلالي، أبو العباس ،أحمد الشيخ بن عبد العزيز، التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، مخطوط غير تام (بدون رقم التصنيف)، أدرار، الجزائر: خزانة سيدي عبد الله البلبالي كوسام، (نسخة خاصة).

28. اليوسي، محمد العياشي، بن الحسن (2018)، رحلة اليوسي، تحقيق: أحمد الباهي،ط1، تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ، بيت الحكمة.